المحاضرة الثانية: الخطابة

تعد الخطابة من الفنون النثرية التي ارتبطت بحاجة الأمم في التواصل بلسان واحد، على اختلاف ألوانهم وأجناسهم وتباين لغاتهم، وقد اِستعملها الأنبياء عليهم الصلاة والسلام لتبليغ الرسالة وأداء الأمانة؛ فكانت حجتهم الدّامغة في استمالة القلوب وتطويعها لرسالة التوحيد، فأقنعوا وأثروا واستمالوا غيرهم.

01- تعريفها:

هي فنّ مشافهة الجمهور وإقناعه واستمالته، فلابد من مشافهة؛ وإلا كانت كتابة أو شعرا مدوناً. ولابد من جمهور يستمع وإلا كان الكلام حديثا أو وصية، ولابد من الإقناع، وذلك بأن يوضّح الخطيب رأيه للسامعين ويؤيده بالبراهين ليعتقدوه كما اعتقده، ثم لابد من الاستمالة، والمراد بها أن يهيّج الخطيب نفوس سامعيه أو يهيئها، ويقبض على زمام عواطفهم يتصرف بها كيف شاء، ساراً أو محزناً، مضحكا أو مبكياً، داعيا إلى الثورة أو إلى السكينة.[1]

فهي الجيد من الكلام تُبنى على دعائم أربع هي قوام متنها: مشافهة، وجمهور، وإقناع واستمالة.

02- أسلوب الخطابة وبنيتها

بما أن الخطابة تهدف إلى الإقناع والتأثير لذلك يجب أن يأتي أسلوبها لتحقيق هذين الهدفين، فاعتماد البراهين المنطقية يحقق الإقناع واللجوء إلى الانفعالات الوجدانية يحقق التأثير من هنا نميز الأسلوب الخطابي:

- بالقوة: قوّة انفعال الخطيب وكلماته وعباراته.
- بالتكرار: الذي يرمي الخطيب من اللجوء إليه إلى تثبيت أفكاره في أذهان سامعيه ومن المستحسن إذا ما أردنا تكرار الفكرة الواحدة أن تعمد إلى تغيير العبارات حتى لا يملّ السامع.
- بدعم الرأي والبرهان: باستعانته بالأحداث التاريخية أو بأقوال الأنبياء والحكماء والقادة.

---

[1]– ينظر: أحمد محمد الحوفي: فن الخطابة، شركة نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع، الجيزة، ص05.

- باعتماد العبارة السهلة والمفهومة: البعيدة عن التعقيد واللبس أي تكون بليغة والجدير بالذكر أن أسلوب الخطبة يختلف بِاختلاف نوعها.[2]

والثابت لا المتحوّل في هذا الفن القولي أنه وليد الدربة وطول مراس فـ «رأس الخطابة الطبع، وعمودها الدّربة، وجناحاها رواية الكلام، وحليُّها الإعراب، وبهاؤها تخيّر الألفاظ، والمحبّة مقرونة بقلّة الاستكراه».[3]

وعلى مرّ العصور الأدبية القديمة اقترنت الخطابة بالسجع والزخرف البياني فكانت بذلك أهم الأجناس الأدبية عند الأمم القديمة، خاصة اليونانية منها؛ حيث قسمها آرسطو إلى أربعة أجزاء:[4]

1. المقدمة: ويمهِّد الخطيب بها لموضوعه، ويحاول أن يجتذب بها انتباه الجمهور، بوصفها أول ما يطرق الأسماع. ويجب أن تناسب موضوع الخطبة سواء من حيث الطرح أو من حيث الطول والقصر؛ ولابد أن تكون الخطبة واضحة مناسبة لأذهان السامعين.
2. العرض: وفيه يعرض الخطيب فكرته الأساسية التي تدور حولها الخطبة ويشرحها بوضوح، ويؤيدها بالأدلة والبراهين، ويتدرّج فيها من الجزئيات إلى الكليات في تسلسل يسلم كل جزء فيه إلى ما بعده.
3. الخاتمة: وفيها يلخّص الخطيب فكرته في عبارات موجزة قوية التأثير، بوصفها آخر ما يبقى في آذان السامعين وأذهانهم.

03- الخطيب وصفاته

الخطابة موهبة فطرية في الإنسان كأيّ فن آخر لهذا عرفها الأقدمون، وعلى الخطيب الذي يمتلك هذه الموهبة أن يجمع إليها ذخيرة كبيرة من العلم، فالخطيب الذي يجمع إلى استعداده الذاتي وذكائه الفطري اصطلاحا واسعا ويكون موفور الحظ من العلم واللغة ليستطيع التكلم في كل موضوع بسهولة ورشاقة، وإقناع كما يقول شيشرون فهو المضغ

---

[2]– ينظر: فواز الشعار، الأدب العربي "الموسوعة الثقافية العامة"، دار الجيل بيروت، لبنان، ص163.

[3]– أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ: البيان والتبيين، قدم له وبوّبه وشرحه الدكتور علي بوملحم، دار ومكتبة هلال،ص20.

[4]– ينظر: سامي أبو زيد: تذوق النص الأدبي، دار المسيرة للنشر والتوزيع والطباعة، عمان، الأردن، ص178–179.

البليغ الضارب على أوتار كل فؤاد ومن الصفات الأخرى التي يستحسن أن يتّصف بها الخطيب رباطة الجأش وصدق الحدس وبعد النظر ولين العريكة وحضور الذهن.[5]

فأول البلاغة اجتماع آلة البلاغة، وذلك أن يكون الخطيب ساكن الجوارح، قليل اللّحظ، متخيّر اللفظ، لا يكلم سيّد الأمة بكلام الأمة ولا الملوك بكلام السُّوقه، ويكون في قواه فضل التصرف في كل طبقة، ولا يدقق المعاني كل التدقيق، ولا ينقّح الألفاظ كل التنقيح، ولا يصفيها كل التصفية، ولا يهذّبها غاية التهذيب، ولا يفعل ذلك حتى يصادف حكيما، أو فيلسوفا عليما، وأن يكون الاسم له طِبقا وتلك الحال له وفْقًا، ويكون الاسم له لا فاضلا ولا مفضولا، ولا مقصراً، ولا مشتركا، ولا مضمّنًا، ويكون مع ذلك ذاكرا لما عقد عليه أول كلامه، وكون تصفّحه لمصادره، في وزن تصفّحه لموارده، ويكون لفظه مُونِقا ولَهول تلك المقامات معاوداً، ومدارُ الأمر على إفهام كل قوم بمقدار طاقتهم،و الحمل عليهم على أقدار منازلهم، وأن تواتيه آلاته، وتتصرف معه أداته، ويكون في التهمة لنفسه معتدلا.[6]

فالخطيب يتصل بجمهوره مباشرة دون وساطة، يبثهم مشاعره وينقل إليهم أفكاره، ومن ثم كان لابد أن يتصف بهذه الصفات، وأن يكون صحيح اللسان خاليا من العيوب، فمنها ما يكون في النطق مثل اللجلجة والفأفأة والتمتمة، واللحن وهو إخراج مخالف لقواعد النحو والصرف، بالإضافة إلى أن يتوقف أو يتحبس في كلامه أو يتنحنح.[7]

والخطابة تشكل آلة البلاغة وصحيح الطبع والخلو من العيب، وعلى هذا الأساس اِشتهرت بعض الخطب عند العرب ووسموهم بألقاب تحمل بوادر إعجابهم بها، وتتضمن معاييرهم الفنية والبلاغية وفي هذا السياق يقول الجاحظ:

والعرب تذكر من خطب العرب العجوز وهي خطبة لآل رقبة، ومتى تكلموا فلابد لهم منها أو من بعضها، والعذراء وهي خطبة قيس بن خارجة لأنه كان أبا عُذرها، والشوهاء، وهي خطبة سحبان وائل، وقيل لها ذلك من حسنها، وذلك أنه خطب بها عند معاوية فلم ينشد شاعر ولم يخطب خطيب.[8]

---

[5]– ينظر: فواز الشعار، الأدب العربي "الموسوعة الثقافية العامة"، ص163.

[6]– أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ: البيان والتبيين، ص37.

[7]– ينظر: فواز الشعار، الأدب العربي "الموسوعة الثقافية العامة"، ص163.

[8]– أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ: البيان والتبيين، ص134

والخطابة تشكل ذروة البلاغة في الخطاب النثري الشفهي، إلى درجة أن بعض النُقاد العرب، وخاصة الفلاسفة منهم إذ ربطوا بين الخطابة والشعر، وكلمة "البلاغة" كانت تعني أساسا "الخطابة" أي: القدرة على الكلام أمام الناس[9]، وهذا ما يفتح باب المفاضلة بين الخطباء،وبالتالي تصدر تلك الأحكام النقدية على أساس التمايز والتفرّد وهو وجه من أوجه النقد الانطباعي . ومما لاشك فيه أن الخطابة اِرتبطت بالجاهليين حيث اعتمدوها في حياتهم ومواقفهم المختلفة؛ فكانت لسان حالهم في السلم والحرب.

04- مراحل الخطابة :

04-01. الخطابة في العصر الجاهلي:

دارت الخطابة الجاهلية في نطاق البيئة التي نشأت وترعرعت فيها، فكانت خطابة بطولة وفروسية يفوّه بها الخطباء للدعوة إلى القتال والحضّ على النزال وكانت خطابة دفاع أو صلح وسلام، وكانت خطابة مفاخرة أو منافرة أمام حكم يحكم أو في حضرة ملك تميل بميله كفّة الميزان.[10]

كما كانت خطابة زهد تدعو الناس إلى الصروف عن بهارج الدنيا والتعلق بحبال الآخرة، وكانت خطابة كُهّان يسجعون سجع الحمام في سبيل هدف غيبي يطلقون وراءه الأقاويل، وينصبون على جوانبه الأحابيل، كانت خطابة زواج... أو خطابة موت... يرمي القلوب في هوَة سحيقة من الحزن، ويحمل على التأمل في حقيقة الوجود، وكانت أخيرا خطابة وصايا يتوجه بها الطاعنون في السن إلى أبنائهم وأحفادهم للسير بهم في سبيل الخير والشرف..[11]

وسبيل هذه الخطب الفصاحة وذروة البلاغة ونصاعة البيان «وقد ازدهرت الخطابة عند العرب في العصر الجاهلي، لأنهم عاشوا طلقاء في جزيرتهم لا تحد من حريتهم تعسف حاكم، أو نظام جائر، فهم أحرار في تفكيرهم، وفي البوح بها والدعوة لها، حريتهم في التنقل في هذه البيئة الرحبة»[12]

---

[9]– مصطفى البشير قط: مفهوم النثر الفني وأجناسه في النقد العربي القديم، ص90.

[10]– حنا الفاخوري: الجامع في تاريخ الأدب العربي (الأدب القديم)، دار الجيل، بيروت، لبنان، ط2، 1995، ص117.

[11] – نفس المرجع، نفس الصفحة.

[12] – أحمد محمد الحوفي: فن الخطابة، ص41.

وكان من أشهر خطباء العرب: قسّ بن ساعدة الإيادي، وقيس بن خارجة بن سنانة خطيب داحس والغبراء، وعتبة بن أبي ربيعة، سهيل بن عمرو الأعلم، ونفيل بن عبد العزى، وأبو عمار الطائي...

ونسوق في هذا المضمار نموذجا من خطب الجاهلية لقسّ بن ساعدة الإيادي هو خطيب العرب قاطبة وبه يُضرب المثل في البلاغة والحكمة كان يدين بالتوحيد، ويؤمن بالبعث ويدعو العرب إلى نبذ العكوف إلى الأصنام وعبادتها، ويهديهم ويرشدهم إلى عبادة الخالق ومن الخطب التي خطبها في سوق عكاظ قبل البعثة النبوية قوله: «أيّها الناس اسمعوا وعوا، من عاش مات، ومن مات فات وكلّ ما هو آتٍ آت، ليل داج ونهار ساج وسماء ذات أبراج، ونجوم تزهى، وبحار تزخر وجبال مُرساة وأرضٍ مُدحاة، وأنهار مُجراة إن في السماء لخبرا وإن في الأرض لعبرًا ما بال الناس يذهبون ولا يرجعون أرضوا فأقاموا؟ أم تركوا فناموا؟ أقسم بالله قسما لا إثم فيه إن لله دينا هو أرضى لكم وأفضل من دينكم الذي أنتم عليه، إنّكم لتأتون من الأمر منكرا»[13]

اعتمد خطيب العرب وحكيمها في نسج خطبته على العبارات القصيرة التي تتوشح بالسجع لإحداث جرس موسيقي يؤثر في السامع، كما طرّزها بالشبيهات والاستعارات الكثيرة حتى تكون شديدة الوطأ على عقل السامع وقلبه إنه «ينقض بخطبه على سامعيه انقضاضا لكي يقتلعهم من ذواتهم المادية ويعقلهم إلى ذواتهم الروحية فيرتفعوا من صنميتهم إلى عبادة الله الحق، وهكذا فخطابته رسالة تبشيرية توقظ الضمائر وترغب في الخير والحسنى»[14]

وعندما جاء الإسلام بتعاليمه الجديدة قام بخلخلة البنية الفكرية والاجتماعية والدينية والأدبية للمجتمع الجاهلي، فهذب القول الأدبي وأضاف عليه من بيان القرآن وإعجازه وأحاديث السنة ألوانا مست المعاني الراقية والأساليب المتينة والألفاظ الساحرة، فكان بحق موردا لا ينضب من حسن البيان وروعة التصوير، وعمق المعاني والتحام الأفكار وإحكام السبك.

---

[13] – أحمد الهاشمي: جواهر الأدب، دار إحياء التراث العربي، بيروت، لبنان، ط1، 1999، ص239.

[14] – حنا الفاخوري: جامع في تاريخ الأدب العربي (الأدب القديم)، ص125.

04-2. الخطـــابة في عصـــر صدر الإسلام:

إن الإسلام قد نقل العرب نقلا، فنمَّى الخطابة وقوَّاها، إذ كانت من وسائله في الدعوة، ثم كانت من أسلحة الأحزاب السياسية التي نشأت بعد ذلك، وهي ضرورية في كل جمعة وعيد، ثم إنهم تأثروا بالقرآن الكريم والحديث الشريف والثقافة الإسلامية والعربية الدخيلة فتعددت مجالي القول، وتنوعت الخطابة، واتسقت المعاني وتسلسلت وصارت الخطبة ذات طابع لا تكاد تحيد عنه، كأن تبدأ بحمد الله والثناء عليه ثم يأتي الموضوع ثم الختام.[15]

ومن الخطب الإسلامية نأتي بنموذج من خطب سيد البلغاء والخطباء الرسول الأكرم محمد عليه أفضل الصلاة والسلام في قوله: «أيّها الناس إن لكـم معالم، فانتهوا إلى معالمكم وإن لكم نهاية فانتهوا إلى نهايتكم فإن العبد بين مخافتين أجل قد مضى لا يدري ما الله فاعل فيه وأجل باق لا يدري ما الله قاض فيه. فليأخذ العبد من نفسه لنفسه ومن دنياه لآخرته ومن الشبيبة قبل الكبر ومن الحياة قبل المماة، فو الذي نفس محمد بيده ما بعد الموت من مستعتب ولا بعد الدنيا من دابر إلا الجنة أو النار».[16]

إن خطب الرسول ﷺ كثيرا ما تحثّ على خير الأعمال وصالحها وتنهى عن الباطل وأذياله، كما فيها تبشير بالجنة ووعيد بالنار، تبدأ بالبسملة والحمدلة والثناء على نعم الله، لأن الخطبة التي لا تبدأ بالحمد لله تسمى بتراء، والتي تخلو من الشهادة بعد الحمدلة تسمى جذماء.

04-3. الخطابة في العصر الأمـــوي:

اِتسعت فنون النثر وتعددت أغراضها في عهد بني أمية، لتبقى الخطابة أرقاها وأحوجهم إليها لعدة عوامل وجملة أسباب، متعلقة بالأحوال السياسية والفتن الداخلية التي بدأت تعصف بالأمة الإسلامية آنذاك.

---

[15] – أحمد محمد الحوفي: فن الخطابة، ص204.

[16] – أحمد زكي صفوت: جمهرة خطب العرب في عصور العرب الزاهرة، دار الحداثة، بيروت، لبنان، ط1، 1985، ص101.

وعليه فقد تعددت موضوعات الخطابة واختلفت غاياتها إلا أنهاُوسمت كلها بالطابع الديني الذي هيمن عليها. وما ميزها في هذا العصر أنها من بنات أفكار الخلفاء والولاة ورؤساء الأحزاب، وقاسمهم المشترك في ذلك البلاغة والفصاحة ونصاعة البيان.

ومن أشهر خطباء هذا العصر الإمام على –رضي الله عنه – وهو أفصح العرب بعد النبي ﷺ، اشتهر بحكمته وبكثرة تنوع خطبه التي مست الجوانب السياسية والدينية والحربية.

وسوف نتوقف عند خطبة قالها في مقتل عثمان بن عفان ، فقال فيها« لو أمرت به لكنت قاتلا، أو نهيت عنه لكنت ناصرا، غير أن من نصره لا يستطيع أن يقول: خذله من أنا خير منه، ومن خذله لا يستطيع أن يقول: نصره من هو خير مني، وأنا جامع لكم أمره، استأثر فأساء الأثرة، وجزعتم فأسأتم الجزع ولله حكم واقع في المستأثر والجازع»[17]

تميّزت هذه الخطبة بالإيجاز وتكثيف المعنى، ألفاظها جزلة تحمل معانيها في جيوبها السياقية، وهو ما يعكس مدى بلاغة الإمام وتمكنه من ناصية اللغة والبيان.

ومن الخلفاء الخطباء في هذا العصر نجد معاوية بن أبي سفيان له خطب كثيرة، نسوق منها قوله «الحمد لله الذي دنا في علوه، وعلا في دنوه، وظهر وبطن، وارتفع فوق كل ذي منظر، هو الأول والآخر، والظاهر والباطن، يقضي فيفضل، ويقدر فيغفر، ويفعل ما يشاء، إذا أراد أمراً أمضاه، وإذا عزم على شيء قضاه... وقد قال سبحانه وتعالى «وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا اقْتَتَلُوا وَلَكِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ» أنظروا يا أهل الشام إنكم غدا تلقون أهل العراق... إما أن تكونوا طلبتم ما عند الله في قتال قوم بغوا عليكم».[18]

امتازت هذه الخطبة بخصائص فنية وبلاغية، منها الاقتباس من القرآن، وحسن التحميد والتوشح بألوان البديع من مقابلات، وطباقات، وجمل مسجوعة الفواصل وكلها محكومة بأسلوب الشرط.

---

[17] – عز الدين أبي حامد عبد الحميد هبة المداني: شرح نهج البلاغة، تع: حسين الأعلمي للنشر، لبنان، ط1، ج1، 1999، ص346 و347.

[18] – أحمد زكي صفوت: جمهرة خطب العرب، ص188–189.

04-4. الخطابة في العصــر العباســي:

كان للخطابة في صدر هذا العصر مكانة في النفوس، وسلطانا على القلوب، لاعتماد القوم عليها في توطيد الملك، وتحميس الجند، واستقبال الوفود، وكان للخلفاء الأولين ودعاتهم فيها الشأن الرفيع والشأو البعيد، كالمنصور والمهدي والرشيد والمأمون وداود بن علي، وخالد بن صفوان وشيب بن شيبة.

فلما اِستوثق الأمر لبني العباس، وقام الموالي بسياسة الدولة وقيادة الجيش وقلَ النضال بالسنان واللسان، ضعفت الخطابة لضعف القدرة عليها، وقلّة الدواعي إليها، وحلّت الرسائل والمنشورات محلها في دفع العظائم وسلّ السخائم، وقُصرت على خطب الجمعة والعيدين والزواج، على أن الخلفاء أنفسهم ما برحوا يخطبون الناس ويؤمونهم إلى عهد الخليفة الراضي، ولما اِستعجم المسلمون وملك العِيّ ألسنة الوعاظ فلم يستطيعوا إنشاء الخطب في الموضوعات المختلفة، عمدوا إلى استظهار خطب أسلافهم كابن نباته المصري، وأخذوا يرددونها فوق المنابر من غير فهم لمعناها ولا علم بمغزاها، ودرجوا على هذه الحال المخزية تلك القرون الطويلة.[19]

ومن نماذج خطب هذا العصر، نذكر خطبة المأمون[20] في عيد الأضحى حيث كان فصيحا، جهير الصوت، في حديثه رونق وملاحة إذ يقول بعد حمد الله وتكبيره «إن يومكم هذا يوم أبان الله فضله، وأوجب تشريفه، وعظم حرمته ووفق له من خلقه صفوته، وابتلى فيه خليله، وفدى فيه من الذبح بنيّه وجعل خاتم الأيام المعلومات العشر ومتقدم الأيام المعدودات من النُّفر يوم حرام من أيام عظام في شهر حرام، ويوم من الحجّ الأكبر، يوم دعا الله إلى مشهده ونزل القرآن بتعظيمه، قال الله عزّ وجلّ « وَأَذِّن فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ »فتقربوا إلى الله في هذا اليوم بذبائحكم، وعظموا شعائر الله واجعلوها من طيب أموالكم وبصحة التقوى من قلوبكم فإنه يقول «لَن يَنَالَ اللَّهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَاؤُهَا وَلَٰكِن يَنَالُهُ التَّقْوَىٰ مِنكُمْ ۚ »

05- أسبــاب ضعفــها:

---

[19] – ينظر: إبراهيم علي أبو الخشب: تاريخ الأدب العربي في العصر العباسي الثاني، دار الفكر العربي، مصر، ص218-219.

[20] – حسام محمد علم: دراسات في النثر العباسي، جامعة الأزهر كلية الدراسات الإسلامية والعربية للبنين بالشرقية، قسم الأدب والنقد، ط3، 2006، ص69.

في أواخر العصر العباسي الأول بدأت بوادر الضعف تظهر على الفن الخطابي بزوال أسبابها وأعجمية رجال الدولة. هذا أولا.

وثانيا: توطدت دعائم الدولة وقامت أركانها وثبتت أسسها فقلّ الخروج عليها كما قلّ خلاف العباسيين فيما بينهم.

ثالثا: بطلت الخطابة في الجيوش، وضعفت الملكات، وقد تنوعت أساليبها وأغراضها فضعف شأنها، ولم يبق لها إلا مظهرها الديني، حيث كان الخلفاء يخرجون للصلوات الجامعة ويخطبون الناس.

رابعا: إن الكتابة حلّت محل الخطابة.

خامسا: تخاذل الخلفاء عن الخطبة وإنابة غيرهم منابهم في الصلاة فاستهان الناس بالخطبة تبعا لاستهانتهم بالخطيب، وبهذا ضعفت الرغبة في القول عامة.[21]

وهكذا حظيت الخطابة باهتمام العرب على مرّ الأعصر الأدبية، فازدهرت وتقننت، حيث تناولها النقاد بالدرس والتحليل فكانت بحق مرآة عاكسة لواقع حالهم. تفاخر بها العرب في مجالسها، فكانت سجلهم الناطق وترجمانهم الصادق.

---

[21] – ينظر: حسام محمد علم: دراسات في النثر العباسي، جامعة الأزهر، كلية الدراسات الإسلامية والعربية للبنين بالشرقية، قسم الأدب والنقد، ط3، 2006، ص72.